

الدراسات والبحوث



■ السامية والساميون

*
فايز قوصرة

السامية واللاسامية مصطلح أثار ويثير الجدل دائماً، طالما التوراة هي المرجع للكثير من مؤرخي المنطقة الأ جانب، وحتى العرب وقعوا في مأزق الفهم الخاطئ لهذا المصطلح الذي ساد على غيره، رغم تحفظ الكثير عليه.. تسعى المؤسسات الصهيونية لتثبيت المصطلح كإشكال حضاري في المنطقة، والسعي لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يدين (معاداة السامية) وإلصاقه بالعرب خاصة وبالمسلمين عامة، طالما هم يعادون الإسرائيليين.

* باحث في التراث

– العمل الفني: الفنان علي الكفري.



أولاً - السامية: مصطلح لغوي:

أطلقه عالم اللاهوت شلوتسر المختص باللغات الشرقية عام ١٧٨١ م على (أسرة اللغات السامية) وهي مجموعة اللغات التي تكلمت بها الشعوب المنحدرة من أولاد سام بن نوح مستنداً إلى الجدول الخاص بأنساب نوح الوارد في التوراة، والذي يقسم الأسرة البشرية إلى سام وحام ويافت. (١)

وأما العرب عنده فهم من الساميين والحاميين، معتقداً أنه وجد (الحل في نصوص التوراة نفسها ذات القدسية لأن الإصحاح العاشر من سفر التكوين يوضح ليس أصول اللغات الشرقية فحسب، وإنما لغات جميع شعوب العالم). (٢)

من بعده Eichhrn إيخورن (١٧٥٢ - ١٨٢٧) كان أول المؤننين بنظرية (السامية) وأول من ساعده في نشرها وتعميمها ولحق به القس رنك، ولأول مرة تضافرت جهود المستشرقين من علماء اللاهوت مع جهود مستشرقين من الدبلوماسيين في دراسة اللغات وخاصة اللغة العربية (السامية) من بينها.. تبعه آخرون فيما بعد وشكلوا (مفهوم النظرية السامية). (٣)

لو عدنا إلى أصول نظريتهم اللغوية من قبل، وممن اهتم من الغربيين بدراسة اللغات الشرقية لوجدنا علماء اللاهوت قد

سيطروا على الدراسات في اللغات الشرقية وفي حضارات شعوبها، واعتمادهم مع علماء التوراة نظرية الهولاندي (ريلاندوس) أن اللغة العربية هي لهجة من اللغة العبرية، واحتدم الصراع في القرن الثامن عشر الميلادي بين ممثلي اتجاهين فكريين متناقضين في الدراسات الشرقية:

الأول: لاهوتي - توراتي تقليدي.

والثاني: تحرري في نظريته إلى دراسة اللغات وخاصة فقه اللغة العربية من بينها وإلى الإسلام. (٤)

يمكن القول إن (شلوتسر) لم يكن يدرك أبعاد مصطلحه، رغم أنه يقصد به التسهيل في الدراسة والتبسيط، ولكن المستشرقين تبنا مصطلحه لتطبيقه على شعوب المنطقة العربية والخط من قدر النبي محمد (ص) وليعارضوا المستشرق (رايسكه) Raiske (القرن ١٨) الذي كان معجباً باللغة العربية وبالتاريخ الإسلامي وبالنبي محمد (ص) فوضع مقدمة في التاريخ الإسلامي.

في القرن التاسع عشر الميلادي كان المستشرق الألماني اليهودي (ابراهيم جايجر) أول من بدأ هذا الطريق في كتابة التاريخ الإسلامي، ثقافته يهودية أرثوذكسية، وضع علم اللاهوت اليهودي، ليصرف دراسته حول المصادر اليهودية في القرآن في مؤلفه (ماذا



أخذ محمد من اليهودية) عام ١٨٣٣ م وترك هذا المؤلف أثره إلى اليوم حول علاقة اليهودية بالإسلام.

من بعده تابع مستشرقون آخرون أهمهم (سبرنجر) الألماني الساخر بالنبي محمد(ص)، إذ طور النظرية السامية عند شلوتسر في بحثه عن وطن الساميين الأول ورسّم أواسط شبه الجزيرة العربية مكاناً لهذا الوطن دون دليل مادي. (٥) وأما كرايمر (١٨٢٨ - ١٨٨٩ م) الذي جاء إلى حلب ليدرس الشرق ولغاته، قد تبنى (النظرية السامية)

واجتماعية وحضارية محددة لم تكن معروفة في بحوثهم، منهم موسيل Mosil النمساوي وكايتاني Caetani الإيطالي. (٧)

وهكذا بدأت تتحول هذه النظرية السامية من دراسات لغوية ولهجات لسانية إلى دراسات عرقية، ولعل (آرنست رينان) الفرنسي (١٨٨٣ - ١٨٩٢ م) أول مستشرق أوروبي يسير في هذا الاتجاه، ليقع في مستنقع أخطاء علم اللاهوت والتوراة بأنهم عرق يختلفون عن العرق الآري ولذلك فإنهم بعكس الهندو - جرمان يميلون إلى التوحيد، وحيث

ولكنه كان قلقاً في تحديده (موطن الساميين الأول) مشيراً إلى أهلهم في الهضبة الآسيوية موطن الجمل مع أنه تأثر برواية التوراة في تحديد مناطق انتشار الساميين. (٦)

بدأ الرحالة في القرن التاسع عشر يجوبون أرض شبه الجزيرة العربية وطالما تبنى بعضهم النظرية السامية، حاولوا التثبت منها بعد دراستهم مجتمعات الأعراب ونظامهم القبلي ولهجاتهم، وأضفى المستشرقون من خلالها على السامية مفاهيم عرقية

بقوله: هي مشتقة من كلمة سما بمعنى علا وارتفع.. وعرفت الدولة البابلية هذا الاسم منذ القدم، حيث أن أحد ملوكها عرف باسم أبو سامي (سامو أبي) وذلك قبل مجيء حمورابي. كذلك ملك في بابل رجل اسمه سامي ليل، وهذا كله قبل مجيء رسالة إبراهيم الدينية، أي قبل ظهور اليهودية وبني إسرائيل والنصرانية. وكلمة سام تعني ارتفع، وهي مرادفة لكلمة ارم وآرام أي صفة للعلو والارتفاع، ومنها كلمة سماء.

أول من أطلق هذا اللقب (ساميين) على مجموعة من الناس هم الفرس عندما غزوا بلاد الآراميين، في القرن السابع ق.م.. والفارق اللفظي بين العربية والفارسية بقلب حرف السين - شينا - والعكس صحيح.

ومن هنا يكون أصل كلمة ساميين هو - ساميون - نسبة إلى بلاد الشام.. وهي موطن الآراميين. استعمل الفرس والإغريق ثم تلاهم الرومان هذه الكلمة محددة للدلالة على منطقة بر الشام العربية.. وعندما جاءت الحضارة اليونانية عبر - بابل - التقت بهؤلاء الساميين واحتكت بهم بمثل ما احتك بهم السريانيون والفرس، فانقلب الحرف الأول عند الفرس والسريان والإغريق، واستعمل دون تنقيط (س) فأصبحوا يعرفون باسم الساميين وفي العهد الإغريقي، تعاصر

أن العرب ساميون، فقد بشر رينان قارئيه ومريديه أن (لا مستقبل زاهر للإسلام ولا بد أن ينقرض^(٨)) واعتبر سهول العراق، البيئة الأولى للسامية الأم ووافقه الكثير على ذلك وإن كان قد سبقه إلى هذا الرأي الإيطالي جويدي.^(٩)

وأما المستشرق سمث البريطاني (١٨٤٦ - ١٨٩٤ م) والذي ترسخت في بحوثه مسألة فهم تاريخ دراسة ديانة التوراة فهماً نقدياً.. وضع مؤلفه حول ديانة الساميين متنبياً النظرية السامية لغة وحضارة وتاريخاً وآثراً، لكنه كان متشعباً بديانة التوراة فمنح نفسه في مسألة تحديد اللغة السامية الأم وموطن الساميين الأول، كما فعل المستشرقان الألمانيان سبرنجر وكريمر وقال إن شبه الجزيرة العربية هي مهد الساميين الأول^(١٠) وأما نولدكه الألماني فخالف الجميع بأن الشمال الإفريقي المهد الأصلي للساميين وأما موسكاتي الإيطالي والذي رجح طرحه على غيره أن شبه الجزيرة العربية الموطن الأصلي للساميين الأول، والسبب في خروجهم الجفاف.^(١١)

ومن الأبحاث الطريفة والتي عدت إليها بحث نشر في مجلة الثقافة العربية في ليبيا^(١٢) بعنوان نوح والصهيونية واللاسامية، يعطينا الباحث مفهوماً جديداً لمنشأ السامية

هم من أبناء (حام) ابن نوح، وأخيراً اعتبر الساميين هم أبناء (سام) ابن نوح. ولو عدنا إلى القرن الخامس ق.م ووقفنا مع التاريخ الحقيقي لظهور اليهودية، والمتأثرة بالظواهر الدينية المحيطة بها أي أن مجموع الأسفار الخمسة التي وضعها عزرا في حدود ٤٥٠ ق.م ليست هي دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأسباط وموسى ولذلك كان مجيء عيسى /ع/ للقضاء على الفكرة اليهودية.

ثانياً - العداء للساميين في الغرب:

لوقبلنا جدلاً بأن اليهود ساميين في مزاعمهم فمتى بدأ هذا العداء لهم؟ هو قديم منذ أن وجدوا وانعزلوا عن المجتمعات الأخرى بحجة أنهم شعب الله المختار.

كان اليونانيون قد شعروا بالكراهية لهم، بعد وفاة الاسكندر وخاصة في القرن الثاني ق.م، وأحد الأسباب رفضهم المشاركة في الأعياد الوثنية العامة للمدن اليونانية، وأنهم أسمى من غيرهم ولم يتقبل المثقف الهليني توحيدهم، لأنهم لم ينزهوا ربهم (يهوه) عن صورة البشر فهو في صفاته وأعماله مشابه لآلهة اليونان والرومان.

رواية في عهد الملك السلوقي أنطيخوس أبيفانس عن سجنهم أحد المواطنين اليونانيين في هيكل أورشليم لذبحه ومص دمه لصنع

كل من حزقيال الشامي، وزرادشت الفارسي وأفلاطون اليوناني.. وكان أتباع الجميع يطلقون على حزقيال اسم (الشامي) وعلى مدرسته الفلسفية اسم مدرسة الساميين. وعندما جاء عزرا (العزير) بعد حزقيال وأراد وضع الأسفار الخمسة - كتوراة بديلة - للتوراة التي فقدتها بنو إسرائيل، فقسم مناطق العالم إلى ثلاث وربط شعوبها مباشرة بفكر التوراة الديني، عندما اعتبر أن نشوء المجتمعات - بعد طوفان نوح إنما كان من خلال نوح نفسه، وأن جميع البشر هم من أبناء نوح نفسه - ولكنهم يتفاوتون - تكوينياً - فيما بينهم، ولهم أفضليات وامتيازات على بعضهم الآخر، فجعل العالم ثلاثة أقسام هي:

١- الآسيويون الأوروبيون.

٢- الأفارقة والملونون، ويدخل فيهم العرب والبدو بدءاً من منطقة تبوك في الصحراء حتى البحر العربي في الجنوب.

٣- الساميون - وهم المنفصلون عن الصحراء العربية لجهة الشمال.

وعلى هذا الأساس، زعم (عزرا) أن القسم الأول من أبناء (يافت) ابن نوح وهذه أول صفة ترد للأوروبيين، لأن كلمة يافت أو Yaphet وردت عند الإغريقين موازية للجن والشياطين. كما اعتبر المصريين والأفارقة (الأحباش) والعرب السمر، الصحراويين

امتيازات خاصة، إذ كرمتهم الدولة الرومانية باعترافها بديانتهم الشرقية وغيرها، لكنهم أرادوا الحصول على كل شيء، امتيازات الطائفة الخاصة وحقوق المواطنة العامة. إذ اعتبر اليهود في الخارج أنفسهم يهود (الشتات) وأينما أقاموا فهم في أرض الأعداء.

وبدأ نشاطهم السري يزداد داخل العاصمة رومة لتفتيتها من الداخل، وما حادثة حرق رومة في عهد نيرون عام ٦٤م والتي التصقت به وألصقها بالمسيحيين، مع أنهم قلة قليلة لا حول لها ولا طول، ثبت تاريخياً وراء حرقها اليهود أنفسهم ف بوبيا زوجة نيرون قد كان لها صلة وثيقة مع وفد كهنوتي يهودي جاء من أورشليم قبل الحرق وعاد بعده محملاً بالهدايا^(١٣) وبعد اعتناق قسطنطين الديانة المسيحية، يعقد مجمع نيقية الكنسي عام ٣٢٥م باعتمادهم الأناجيل الأربعة طالبوا آباء الكنيسة بمنع شيوخ اليهود من رواية تعاليمهم الدينية وتسجيلها في تلمودهم بوصفهم أعداء المسيح ولعل تحليل (سارتر) المحامي عنهم والغافل عن جرائمهم عبر التاريخ في قوله أن أقدم تهمة وجهت إليهم أنهم قتلوا المسيح، وكل مسيحي في أوروبا يشب ناظراً إليهم على أنهم قتلوا أحفاد قتلوا، ولذلك يشب اليهودي شاعراً أنه في موقف مختلف عن الآخرين، مستبعد مكروه - كما يقول - سارتر - ولن

خبزهم وتناوله في عيد الفصح عندهم (وهذه لها مثيل في دمشق وكما سيرد) .. حوادث عدة أدت إلى العداء للسامية فيما بعد في العهد الروماني لاحتكارهم التزام الضرائب والأموال التجارية ومن الثابت تاريخياً أن اليهود استطاعوا النفوذ إلى مراكز القوى العالمية، إذ اتبعوا (الاسكندر المقدوني) ولعبوا دورهم في القوة العالمية حينذاك. وكذلك حين استظلوا بالفرس، وأتاحوا لهم فرصة العودة إلى فلسطين وبناء الهيكل (٥١٦ ق.م) لكنهم حين وجدوا الاسكندر غاب نجمه، استبدلوه (بقورش) الفارسي، فساعدوه باحتلال بابل عبر مؤامراتهم ضد السلطة العربية البابلية. وكذلك فعل (يوليوس قيصر) القائد الروماني بمكافأته على خدماتهم وكذلك ابنه فيما بعد. وفي الإسكندرية كان لهم النفوذ الأكبر في العهد الروماني .. ويمكن القول إن الاستعمار الروماني قد تعهد بنفسه بدور معاداة السامية، خاصة في عهد القائد (بومبي) ٦٣ ق.م حين ساق إلى رومة عدداً كبيراً من الأسرى اليهود وأما يهود رومة، فقد بدأ يتفاقم نفوذهم عام ١٩م، مما حدا بالإمبراطور طيباريوس قيصر إلى تفاذي مواجهة اليهود بما يكرهون بصورة مباشرة ويحتال لتقليص نفوذهم بأسلوب ملتو. وحصل اليهود في الإمبراطورية على

ستينات القرن التاسع عشر لدى الكاتب جوبينو في كتابه (دراسة عن عدم تساوي الأجناس البشرية) وأما المستشار الألماني بسمارك فكان يعتقد أن شعار العداء للسامية ضروري للقضاء على مزاحمة التجار وأصحاب المصارف ورجال الأعمال اليهود. وفي عام ١٨٨٢ عقد في أوروبا المؤتمر الأول لمعاداة السامية وصدر عنه نداء إلى جميع الدول والشعوب المسيحية وكأنها مهددة بخطر الموت من وطأة اليهودية. وبعد هذا المؤتمر انتشرت موجة العداء للسامية في عدد من البلدان الأوروبية. وتثبت الوقائع التاريخية أن منظري الصهيونية ساهموا في عملية (ابتداع) ظاهرة العداء للسامية.. والعداء الممتد عبر ألفي سنة غير قابل للشفاء.. هكذا صور المفكر الصهيوني (بنسكر) ظاهرة العداء للسامية. ووفق تحليله العنصري، يود الوصول إلى هدفين اثنين:

١- الأمة اليهودية كانت موجودة دائماً بسبب قدم العداء للسامية واستمراره.

٢- لا حل للمسألة اليهودية إلا بتجميع اليهود في وطنهم القومي فلسطين لأن استئصال معاداة السامية من الطبيعة البشرية (غير اليهودية) أمر مستحيل. (١٦)

وظهر أيضاً ما يسمى (العنصرية اليهودية)، ولحل الإشكال بين الساميين

يقبل سكان أوروبا المسيحية انتماءهم إليهم ويسهب في وصف صورة اليهودي في المجتمع الأوروبي، لكنه يرسم أيضاً صورة (عدو السامية) الذي يتميز بعداء خاص لليهود. ونتيجة هذا العداء ظهر فريق يدعو إلى إقامة وطن يهودي ودولة يهودية والرد على النفي قيام دولة تبرهن على ما يقوله خصومهم من أنهم لا يحبون الانتماء إلى الأوطان التي يعيشون فيها أصلاً. (١٤)

وأما المؤرخ العالمي (توينبي) في كتابه دراسة للتاريخ يقول (إن اليهود أصبحوا في وقتنا هذا أشبه بأثر متحجر من آثار مدينة ساحقة وأن اللاسامية في التاريخ المسيحي فرضت على المسيحية بوساطة اليهودية وليس بوساطة الهيلانية.. وقد تحول اليهود إلى مضطهدين (بكسر الهاء) لأول مرة في تاريخهم منذ العام ١٣٥ بعد المسيح)

وأما الدكتور حسن ظاظا - والذي اهتم بدراسة اليهودية وطقوسها - يحدد ظهور اللاسامية إلى القرنين ١٨ - ١٩ في أوروبا ومنها إلى أمريكا، بعد تفشيها في روسيا لدرجة أن حملات أنصار اللاسامية ضد اليهود تحمل اسماً روسياً هو كلمة (بوجروم) أي حملة النكال والقتل والتخريب ضد المجتمعات اليهودية. (١٥)

ولقد ازدادت موجة العداء للسامية في

ابن شبروت، الإشراف على الخزانة وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية، وكذلك عمل (حسداي) طبيباً خاصاً للناصر.

ووفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة وكانوا يرتدون الزي العربي، ويمتازون بثرائهم. وفي غرناطة تولى الوزارة (يوسف بن نغزالة) وكذلك حظوا برعاية في ظل الدولة الأيوبية، وكان طبيب الملك الناصر صلاح الدين العلامة (موسى بن ميمون) اليهودي القرطبي، وعين رئيساً للجالية اليهودية. وكان يدرس الطب والفلك والرياضة بالجامع الأزهر. (١٨)

وحتى بعد سقوط الأندلس، لجأوا إلى الشرق في اسطنبول وغيرها من مدن الشرق العربي.. ومن الوثائق التي اطلعت عليها أن مدير المال لولاية حلب وهي كبرى الولايات العثمانية قد كان يهودياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وأقر الكاتب اليهودي (رافائيل باتاي) في كتابه العقل العربي والعقل اليهودي: (أن وضع اليهود في دار الإسلام كان على وجه العموم أفضل بكثير من وضعهم في أوروبا المسيحية.. والعرب لم يمارسوا أي اضطهاد أو ترحيل على نطاق واسع وسمي العصر الذهبي لليهود في إسبانيا حين اقتبس اليهود اللغة العربية صبوا فيها

واللاسامين، طرحوا إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين هو الحل. وإذا كان العرب أو المسلمون يعارضون إنشاء مثل هذا الوطن فهم بالتالي لا ساميون، وهكذا تحولت النظرية السامية من حل لمشكلة لغوية، إلى مشكلة سياسية ذات جذور عنصرية، ومشكلة صراع وجود، وليس إلى نقاش لغوي!!

ثالثاً - موقف الشرق منهم :

لم يفكر الشرق بعدائهم، إذ استظل اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، وكان لهم مراكز مرموقة في المجتمع إلى عهد متأخر، ورغم تأمرهم على الرسول / ص / فإن القرآن حذر الرسول / ص / منهم، ولكن اللاسامية، كانت مجهولة بين العرب ولعل حادثة تعيين (بستائي) اليهودي من قبل عمر رئيساً مسؤولاً عن الجالية اليهودية في العراق وإيران واستمرار هذا المنصب فيما بعد.. هو اعتراف رسمي من رئيس دولة غير يهودية بسلطة روحية ورئاسية لطائفة من أهل الكتاب (١٧).

ويؤكد علماء التاريخ اليهود على أن الإسلام قد تفاعل بنشاط مع الفكر اليهودي، وموقف المسلمين المتسامح معهم يشهد به موسوعاتهم وخاصة في الأندلس، وفي ظل خلافة قرطبة وصلوا إلى ذروة النفوذ والرخاء، وفي أيام عبد الرحمن الناصر، تولى العلامة (حسداي)

إنهم في كتاباتهم التوراتية يكرهون كل شيء يخص ملوك وشعوب العراق ومصر وسورية لأسباب سياسية أكثر منها عقائدية.. وهم يستقبحون الكنعانيين لأنهم من نسل شخص لعنه نوح أبوه لسبب يقال غير مقنع في التوراة. (٢١)

إن الشرق لم يكن صاحب هذه النظرية العنصرية، بل هم أتباع المدرسة التوراتية وقد أشاد (بيير روسي) بالتسامح الذي كان طبعاً أصيلاً في النظرة الدينية الشرقية للإنسان، كما نبه أن التعصب الأعمى هو إنتاج يهودي محض، كرسه الغرب فيما بعد بغير هواده. (٢٢) بل إن الشرق قد دفع ثمن هذه النظرة في الحروب الصليبية، وعودة إلى التراث الكلاسيكي لهذه الحروب نجد أن ما كان يستحوذ على عقول فرسان الصليب ويدفعهم إلى تحمل كل المشاق.. المثل التوراتية الثلاثة: شعب الله المختار - الأرض الموعودة - الحرب المقدسة.. وغص الأدب الصليبي بالإشارات التوراتية وبمقارنات بين أبطال الصليب وأبطال التوراة مثلهم الأعلى. وكان القديس برنارد الأب الروحي لأوروبا الغربية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر فأنشأ فرسان المعبد وأطلق عليهم الأحفاد الحقيقيين لبني إسرائيل وهكذا أصبحت صورة المسلمين في أدب الحروب الصليبية

كل مساهماتهم الفكرية). بل إن الفكر العربي حررهم من اقتصارهم على دراسة دينهم وأدخلهم في مجال البحث العلمي. وفي ظل هذه الحضارة أنجبوا أكبر فلاسفتهم موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) ولكنهم سرعان ما تخلوا عن العرب وتعاونوا مع الإسبان ويؤكد باتاي (الفرق بين تاريخ اليهود في إسبانية المسلمة وإسبانية المسيحية، أنه بينما كانت في الأولى تتخلل حياة اليهود أحياناً فترات من الاضطهاد، صار في الثانية يتخلل اضطهاد اليهود فترات متقطعة من السلم بين الحين والحين. (١٩)

لم يكن الشرق عنصرياً تجاه الساميين والعداء - إن وقع - فهو من ميولهم العنصرية وأنهم شعب الله المختار وجميع الشعوب تستحق الفناء، ويمثلون هذا في طقوسهم الدينية - وكما ذكرنا سابقاً - حدث في دمشق ١٨٤٠/٢/٦م إذ فقد أحد الرهبان الكاثوليك مع خادمه وتبين أن اليهود قد ذبحوه ليشربوا من دمه، أو صنعوا من هذا الدم خبزاً يأكلونه في أحد الأعياد كما هي عادتهم، وهكذا هاجم الناس اليهود في حاراتهم وفي معابدهم وأن يحرقوا البيت وأن يهدموا المعابد في دمشق وبيروت وفي أزمير بتركيا. (٢٠)

وأما فراس سواح توصل إلى القول: نشوء التوراة وتطوره من أرضية ثقافية سورية وبابلية ومصرية. لقد بدأت المشابهات بين التوراة وآداب الشرق القديم تظهر، عندما بدأت الحضارات القديمة للمنطقة تتكشف من تحت التراب بوساطة الحفريات الأثرية^(٢٦). وقد ذكر الباحث فردريك ديليتشس في كتابه بابل والكتاب المقدس حقيقة الطوفان البابلي الذي عثر عليه على لوح فخاري مكتوب في مكتبة سردنبال في مدينة نينوى ويعود تدوينه إلى الألف الثالث ق.م وتعرض إلى المتشابهات والعلاقة الوثيقة بين رواية التكوين في العهد القديم ورواية التكوين البابلية^(٢٧). وكذلك الترابط في مفهوم الخطيئة وإغراء الحية للمرأة. وهناك نصوص أخرى ثبت من خلال الكشوفات الأثرية أنها من تراث بلاد ما بين النهرين وتتمثل في أسفار التكوين والخلق والطوفان وأيوب وجنة عدن وقابيل وهابيل. أما النصوص الكتابية المكتشفة في أوغاريت فقد أخذ منها الكتاب المقدس وهكذا يمكن القول إن التوراة لم تعد وثيقة تاريخية، وعلى المؤرخين الرجوع عن تواريخهم، ونحن علينا إعادة النظر في تاريخنا مرة أخرى.

خامساً - نقداً لآثارهم:

لسنا في معرض محتوى التوراة فلسنا من أصحاب الاختصاص في ذلك، ولكننا نستعين

هي في كثير من جوانبها صورة أعداء بني إسرائيل كما وردت في التوراة^(٢٨).

رابعاً - مصادر التوراة:

كثرت الأبحاث والدراسات التي تؤكد أن التوراة لم تعد كتاباً مقدساً، بعد نقدها، مكتشفين فوارق في الأسلوب وتناقض في الروايات عن الحادث الواحد وتباين في الأوامر التي يفترض أنها من مصدر واحد كما يقول الدكتور أنيس فريجة - لقد كان الناس يعتقدون جيلاً بعد جيل أن الكتب الخمسة الأولى من التوراة (تكوين/ خروج /لاويين/عدد/ تثنية) كتبها كلها النبي موسى مع أن مثل هذا القول لا يرد في التوراة ذاتها.. والتوراة كلمة عبرية تعني توجيه وتعليم واعتراف بقدسية التوراة في القرن الخامس ق.م.. ولكن لم تبدأ دراستها النقدية إلا بعد القرن السابع عشر، وخلصوا إلى أن الألف سنة بين إبراهيم وتدوين التوراة في تسجيلهم القصص القديمة^(٢٩)، ليست بالزمن القصير وأكد الباحث جورج كنعان: أن أسفار التوراة المقدسة منقولة برمتها أو مسخاً عن الآداب والشرائع المصرية والكنعانية والبابلية^(٣٠). وقد خلص الباحثون إلى أن التوراة قد سطرت وكتبت منذ بداية الألف الأول ق.م وتبين أن ما ورد فيها قد أتى من بابل مع اليهود في السبي البابلي والذي تم في القرن السادس الميلادي.

ونسبت جذوره إلى أرض الرافدين (مسطط رأس إبراهيم في أور البابلية) والشمال السوري في حران، والجنوب في كنعان، ومن ثم في مصر، وكل هذا التاريخ كتب في عصر واحد وزمن واحد بالتزام واحد، هو إظهار شعب الله المختار.. وفكرة الإله الواحد من أور كلدان إلى أرض كنعان، زيف تاريخي ذو أهداف سياسية لتبرير استيلاء اليهود على أرض غيرهم.^(٢٩)

ومن اطلع على كتاب (حتى) (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) أو أي كتاب آخر لوجد أن مرجعهم الأول والأخير بل جميع هوامشهم تستند إلى التوراة، مع أن الواقع الأثري قد أثبت بطلان وتناقض رواياتها، ومثالنا أن رواية الخروج من مصر من بدايتها في مدينة رمسيس إلى نهايتها عند شاطئ نهر الأردن، لم تجد لها سنداً - حتى الآن - من شاهد تاريخي أو آثري.^(٣٠) لقد نقبوا كثيراً في الأراضي الفلسطينية، فلم يجدوا غير معابد وقصور كنعانية وأما أوغاريت العربية الكنعانية فقد قدمت الأصل الحقيقي ليهوه، ولأغلب مواد التوراة الأدبية والطقسية والفولكلورية، وخلص الكثير إلى مصدرها الكنعاني^(٣١)، مع أن التوراة تستبعد الكنعانيين. لقد أثبتت المكتشفات الآثرية وأظهرت أن المنطقة العروبية هي واحدة، منذ أن ظهرت

بالدراسات والمكتشفات الأثرية، والتي أكدت أن التوراة هي نسخة من الأساطير والقصص العروبية القديمة.

وخير من قدم لنا بالوثائق الأثرية والتاريخية الباحث الفرنسي (بيير روسي) في كتابه (مدينة ايزيس - التاريخ الحقيقي للعرب) مؤكداً أن العبرانيين استطاعوا النفوذ إلى ثقافتنا وأنهم الأجداد الساميين لتاريخ الشرق ولتاريخنا نحن.. فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا الدساتير ولا القوانين تكشف أثراً قليلاً للعبرانيين. فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية أو مكتبة رأس شمرا (أوغاريت) أو نينوى، وحتى الروايات الآرامية.. في ذلك كله لا تذكر كلمة (عبرية). وأشهر ملوك التوراة وهما داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هنالك أبداً ذكر للملحمة وللوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين^(٣٢).

وأما موسى فقد رأى الآثاريون فيه شخصية مركبة عن سرغن الأكادي، البطل الوجدوي الأول الذي وحد المشرق العربي في الألف الثالث ق. م، ولذلك ركبوا قصته التوحيدية على موسى وخاصة قصة إنقاذه ومجرى حياته وقيادته شعبه. لقد اتضح بجلاء أن إسرائيل ابتدعت لنفسها تاريخاً،

نخلص إلى القول: إن العروبية هي اللغة الأقدم، وليست السامية (العبرية).

سادساً: آراء ومقترحات:

كثرت الدعوات إلى إيجاد مصطلح بديل عن السامية، طالما كشفت التنقيبات الآثارية والوثائق التاريخية، عن زيف التاريخ التوراتي إذ لا يعقل أن تحتفظ الأجيال في ذاكرتها بنص رواية شفوية عن نسب آدم ونوح حتى الألف الأولى قبل الميلاد، علماً بأن الإنسان لم يكن قد عرف أسماء العلم، فكيف بالأنساب التي يجهل أهميتها، بل وجدنا في الرقم الأثرية أسماء أعلام غير مرتبطة بالنسب فكيف وثق التوراتيون نسبهم ؟ !

« وأما محتواها الديني فليس أصيلاً كما يدعون، فهم في مفاهيم البابلي قد وقفت عقيدتهم اليهودية والعقائد الأخرى (مردوك وآشور وزرادشت) .. ولكن ظهور أشخاص بينهم مثل (عاموس وأشعيا وحزقيال وأرميا .. إلخ) قد زرع في نفوسهم أمل تكوين الوحدة الدينية واللغوية، لذلك طرحوا مقولات جديدة، من الأفكار والعقائد الأخرى وأهمها شجرة الأصل والنسب التوراتية التي حددت لـ اليهودي نشأته الأولى وأصوله العرقية، واستمراريتها بشكل منتظم من آدم مروراً بـ نوح وسام وانتهاء بأسباط إسرائيل. ولذلك يظهر أسباط إسرائيل أخيراً في هذه الشجرة

الحضارة فيها، فهذا عصر مسيلم نسبة إلى الملك العربي في كيش (العراق) والذي يتفق مع زمن أول سلالة أور الأولى حوالي آخر النصف الأول من القرن السابع والعشرين ق.م وأما منحوتات ماري فقد حملت كتابة عروبية قديمة وكذلك إبلا والتي أرجح هي أهم مصادر اللسان العروبي القديم، تفرع إلى لهجات أوغاريتية وآرامية - سريانية وعبرانية وعربية.. وقد أشار الإمام ابن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام صفحة ٣: « إن العربية والسريانية والعبرانية من أصل واحد»^(٣٢) وأكد قوله هذا كثير من علماء اللغات في القرنين الماضيين كـ (اولمستد) و(عبد الله فيلبي) و(دي جوج) و(اولسهوزن) و(نولدكه) مجمعين على قدم اللغة العربية، وهي أصل اللغات السامية، بل إن (دوسو) قال بصريح العبارة: إن حمورابي ملك بابل هو عربي^(٣٣). وأما كلمة عرب فلم تكن شائعة في التاريخ القديم، ولم يعثر عليها إلا في نص آشوري في عهد شلمنصر الثالث ٨٥٣ ق.م ولم تعرف صفة العربي وعاداته إلا في نص آخر، في عهد تغلات فليصر الثالث ٧٣٨ ق.م. وبعضهم قال إن كلمة آرام ما هي إلا كلمة آراب = عرب وإن إبدال الميم بالباء لهجة معروفة عند العرب القدماء حتى قالوا: مكة وبكة»^(٣٤)

القضية الأولى: المعروفة بالقضية النقبية Negebite والمثارة بعد اكتشاف أوغاريت عام ١٩٢٩ م ثم تفسير لغتها ولأن التوراة وحدها كانت قائمة - بشكل فعال - في الخلفية الثقافية والرصيد المعرفي لأولئك الدارسين، فقد أثار اعتمادهم في تفهم لغة أوغاريت على الجذور المشتركة للألفاظ في اللغات السامية المعروفة، وخاصة العبرية.. أثار إحدى القضايا التاريخية الشهيرة (في أسطورة كرت) واشترك فيها جماعة من علماء أوغاريت. موجزها أن (فيرولو) وجد بعض ألفاظ وردت في الملحمة أسماء أشخاص تاريخيين وأسماء أسباط من أسباط اليهود مثل تارح أبي إبراهيم وأشير وزبلون، وأدوم في شرقي الأردن، والنقب الجزء الجنوبي الصحراوي من أرض كنعان القديمة.. وثبت أن هذه الكلمات لها معان أخرى، والقضية ليست تاريخية بقدر ما هي أسطورة أدبية دينية. واستغل العلماء اليهود هذه الترجمة، وحولوها إلى قضية سياسية، استغلوها في خلق عقدة الذنب اللاسامية عند الأوروبيين، رغم إجماع علماء اللغة الأوغاريتية على مخالفة (فيرولو) ومعنى لفظ Negebite ليس النقب بل النجباء وغيرها من الألفاظ

في صورة مميزة عن سائر قادة شعوب الأرض وأعلامها صورة مميزة بأصلهم العرقي السامي المزعوم. وهنا حقق الكتاب غرضين في آن واحد:

١- تحديد أصل ملتهم العرقي، ولو كان تحديداً مصطنعاً.

٢- نشر تصورهم الشمولي للخلقة وتأثيرهم المباشر في تصور الشعوب الأخرى لأصولها الأولى.

وهكذا حققوا الشعور المشترك فيما بينهم بالانتماء لأصل واحد على حد زعمهم في وحدتهم العرقية.^(٢٥)

وطالما تثبتنا من زيف شجرة النسب التوراتية، والتي سميت خطأً بالعائلة السامية، كذلك من غير المقبول طرح مقولتهم أو هناك لغة سامية، بعد اكتشاف اللغة العروبية القديمة في كل من ماري وإبلا وأغاريت وشعوبها والتأكد في علم اللغة المقارن تشابه الفرعونية والعربية في الكثير من المفردات والمفاهيم.

هم ينتهزون كل فرصة لتثبيت زيفهم، ولكن الآثار تحبط محاولاتهم وخير مثال تقدمه في قضيتين، وسنعرف لماذا حدث ما حدث في وقت الحدث.

الإبلائي ترجموها ابراهام وغيرها بما يخدم أغراضهم السياسية، ليتقولوا إنهم ساميون من نسلهم، بل سكان إبلا عروبيون وليس العكس في رأينا، إن اكتشاف لسان إبلا رد على أن هناك (عالم حضاري) يسبقهم بألف وخمسمئة عام بل يسبق طوفانهم وأساطيرهم!

وقبل اكتشاف محتوى رقم إبلا توصل الباحث الفرنسي (بيير روسي) إلى حقيقة عروبة الثقافة في المنطقة في قوله (إذا كنا عازمين على أن لا نستعير شيئاً من أحلامنا، فيجب علينا أن نعرف العروبة كثقافة الشرق الوحيدة).^(٣٨)

هو يدعو إلى (أن يلغي المثقفون العرب هذا الدجل العلمي الذي بات تاريخهم ضحية له . كما يندد بما فعله علماء الغرب الموسوعيون حيال ذلك التاريخ، وبما أسندوا إليه من أساطير توراتية موضحاً أن ذلك كله ادعاء وابتذال أحكام مسبقة ضد الشرق، وأنها روح استعمار أبوي تحاول فرض نفسها) بل علينا أن نتكلم عن العرب ذلكم الشعب الحقيقي والذي يمتلك وجوداً اجتماعياً مستمراً، وجوداً ثقافياً ولغوياً يعطي حياة وتوازناً لهذا البحر المتوسط منذ عدة آلاف من السنوات. وأما الدين في نظر روس (ليس شيئاً آخر سوى توكيد وجود الروح وانسها بالإله خالقها .. إن

التي خالفه فيها الآباء البروتستانت. تمت حركتهم هذه قبل إنشاء دولة إسرائيل ١٩٤٨ م، ليستفيدوا منها بأن أرض الميعاد، لها وجود تاريخي في سورية، وأنهم قد شاركوا في ميراث المنطقة.^(٣٦)

القضية الثانية: رقم إبلا وتفسيراتها الأولية :

أيضاً حدثت بعد حرب ١٩٦٧ م لتستغل في إثبات وجودهم التوراتي بادعائهم إبلا هي وطن العبرانيين، وسببها القراءات الخاطئة للألواح بوجود إشارة إلى سدوم وعمورة وإلى كهنة توراتيين وغيرها، هو التسرع بالتفسير الخاطئ وقرر (بيغز) «أنه لا ينبغي قبول الاقتراح الأولي القائل بربط لغة ألواح إبلا باللغة العبرية، ولا سيما إذا تذكرنا بأن اللغتين يفصل بينهما أكثر من ألف عام».^(٣٧)

وقد رد علماؤنا عليهم علمياً مؤكدين أن المدن المكتشفة ماري وأوغاريت وإبلا وغيرها لم تذكر في التوراة فكيف هي توراتية ؟

وحين ذكر بعض الأسماء المتشابهة مع أسماء التوراة، فهي صفات لأشخاص لا يمتون بصلة النسب للعبرانيين، بل العكس هم الذين استوحوا من أحداث وأساطير هذه المواقع توراتهم، والأسماء هي متوارثة ومعدلة حسب اللهجات ف اسم الملك (ابريوم)

هذا بأن تسمية الرهاوي هي أيضاً مأخوذة من التوراة وكذلك الدكتور البير فريد نقاش يقترح الاستعاضة عن النسبة إلى سام بالنسبة إلى (الشرق) كأن يقال المشاركة والسن المشرق ولسان مشرقى^(٤١)، ولكننا لا نوافقه على هذا الطرح رغم مبرراته للدلالة عليه كاسم يطلق على سكان هذه المنطقة إذ فاتته أن الغرب يطلق على الصين اسم المشرق فكيف سيكون لسانهم مشرقى كلساننا !!

- الباحث اللغوي محمد خليفة التونسي لا يقترح بل يؤكد على استبدال السامية بـ (العروبية) ويوافقه د. علي فهمي خشيم (ليبيا) على مصطلح (العروبية) مؤكداً في جميع أبحاثه على ذلك بالشواهد والقرائن اللغوية حتى من الفرعونية العربية^(٤٢)، وكذلك د. جمال الدين خضور يذكر (العروبية) دون تواصل مع خشيم.

وفي ختام بحثنا نحن مع استبدال مصطلح اللغة السامية^(٤٣) باللغة العروبية والشعوب السامية بالشعب العربي، بتعدد أسماء الصفات في العصور المختلفة.

الحيوية المدهشة والمستمرة لأديان الشرق القديمة تظهر أنها كانت شيئاً غير مجموعة صور. والإسلام نفسه لم يغير شيئاً بل أكمل ! لقد استولى على قلب التراث العربي ليحاول التعبير عنه كاملاً.^(٢٩)

وأخيراً ما الحل وما البديل عن السامية والساميون ؟ !

- الباحث محمد عزة دروزة اقترح مصطلح (الجنس العربي).

- الباحث أحمد داود يفضل (العربية).

- الباحث د. جواد علي اقترح (الشعوب العربية).

- الباحث أنور الرفاعي اقترح البديل بـ(سامي / عربي).

- العلامة العراقي طه باقر يقترح (لغة الجزيرة أو اللغات العربية أو الأقوام العربية أو أقوام الجزيرة).

- الأب بولس بهنام يؤيد تسمية السامية لأنها قديمة جداً في تراثنا ترقى إلى ما قبل القرن السابع الميلادي وأول من أطلقها على مجموعة اللغات الشرقية هذه هو يعقوب الرهاوي المتوفي عام ٧٠٨ م^(٤٠)، ونرد على

هوامش

٢- سليمان: أسطورة النظرية السامية دمشق

١٩٨٢ ص ٥٧ - ٥٨.

٣- سليمان: ص ٦٠ - ٦١.

١- ولفنسون: تاريخ اللغات السامية بيروت ١٩٨٠

ص ٢ وغيرها ونسيب وهيبة الخازن: من

الساميين إلى العرب ص ٩ وما بعد.

- ٤- سليمان: ص ٤٥ - ٤٦ وقد مثل الأول الهولندي شولتز والثاني الألماني رايسكه.
- ٥- سليمان: ص ٦٣ - ٦٤.
- ٦- سليمان: ص ٦٦.
- ٧- سليمان: ص ٦٩.
- ٨- سليمان: ص ٧٠.
- ٩- ظاظا - حسن: الساميون ولغاتهم دمشق ١٩٩٠ ص ١٨.
- ١٠- سليمان: ص ٧٢.
- ١١- ظاظا الساميون ولغاتهم ص ١٧.
- ١٢- محمود علي البغدادي في مجلة الثقافة العربية عدد ٧ حزيران ١٩٧٦ ص ٣٣ - ٣٤.
- ١٣- نعناعة - محمود في مجلة الثقافة العربية نيرون وبوبيا ومعاداة السامية عدد ١١ أيلول ١٩٧٤.
- ١٤- مجلة العلوم عدد ٨ / ١٩٦١ ص ٥٧ - ٦٠.
- ١٥- ظاظا مقال اللاسامية واللاإسلامية مجلة الفيصل عدد ٢٠٥ يناير ١٩٩٤ ص ٧.
- ١٦- مجلة الأرض الفلسطينية ٢٤ / ١٩٧٩ ص ٧.
- ١٧- ظاظا - مقال اللاسامية والإسلام مجلة الفيصل عدد ٢٤٨ / ١٩٩٧ ص ٢١.
- ١٨- د. محمد عبد الله عنان - مجلة العربي عدد ١٢٧ حزيران ١٩٦٩ ص ١٨ - ١٩.
- ١٩- مجلة الحوادث اللبنانية عدد ١١٢٦ تاريخ ٦ / ١٩٧٨ ص ٦٦.
- ٢٠- جريدة أخبار اليوم المصرية ١٢ / ١ / ١٩٧٤ مقال عن كتاب الدياسبورا.
- ٢١- الشمس - ماجد في أصل العرب / دمشق ٢٠٠٤ ص ٦.
- ٢٢- داود - أحمد: لآلئ الملك الكبير مجلة المعرفة عدد ٢٤٠ تا ٢ / ١٩٨٢ ص ٢١٦.
- ٢٣- يوسف - عبد الكريم: الجذور التوراتية للحروب الصليبية مقال في مجلة الموقف الأدبي ٦ / ١٩٩٣.
- ٢٤- الجندي - أنور الشبهات والأخطاء - القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٣ - ١٠٥.
- ٢٥- كنعان - جورجى مقال في جريدة تشرين ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٦ ص ٨.
- ٢٦- سواح - فراس: مغامرة العقل الأولى بيروت ١٩٨٠ ص ١١٦.
- ٢٧- القيم - علي - مجالس الكتب دمشق ١٩٩٢ ص ٢٠٥.
- ٢٨- داود - أحمد تاريخ سوريا القديم دمشق ١٩٩٧ ط٢ ص ٧١ وغيرها.
- ٢٩- القيم - علي: مجالس ص ٢٨ - ٢٩ عن كتاب وحيد خياطة قراءات في التوراة.
- ٣٠- القيم - مجالس ص ٢١٣ نقلاً عن كتاب سواح، وانظر اسطورة النظرية السامية ص ١٤٥.
- ٣١- داود - أحمد: لآلئ الملك الكبير - المعرفة عدد ٢٤٠ ص ١٨٦ - ١٨٧.
- ٣٢- مجلة العربي عدد ٨٥ عام ١٩٦٥ ص ٩٠ وقد عاش ابن حزم في القرن الخامس الهجري وكذلك العدد ٩١ تاريخ ٦ / ١٩٨٦.
- ٣٣- جعفر - إحسان: العربية أقدم اللغات السامية - مجلة المعرفة ٢٢٢ - ٢٢٣ / ٩ / ١٩٨٠ ص ٣٤ - ٣٥.
- ٣٤- العث - محمد فرج أبو - القومية العربية القديمة مقال في المجلة المصرية نوفمبر ١٩٦٠ ص ٥٣.

- ٣٥- سليمان: ص ١٨٤ - ١٨٥.
- ٣٦- داود - أحمد: لآئى الملك الكبير. مجلة المعرفة عدد ٢٤٠ تا ٢ / ١٩٨٢ ص ١٨٩ - ١٩١.
- ٣٧- بهنس - عفيف: وثائق إبلا دمشق ١٩٨٤ ص ٧١.
- ٣٨- خضور - جمال الدين: مقدمة في الأنثروبولوجية المعرفة التاريخية - مجلة المعرفة عدد ٣٩٤ تا ٧ / ١٩٩٦.
- ٣٩- داود - أحمد: بحثاً عن التاريخ الحقيقي للعرب - مجلة المعرفة عدد ٢٥٠ تا ١٢ / ١٩٨٢ ص ٧٠.
- ٤٠- الزكي - جرجس: مقال في جريدة البعث من المصطلحات الواردة فيه !!!

المراجع

- ١- الخازن- نسيب وهيب: من الساميين إلى العرب. بيروت ١٩٨٠م.
- ٢- داود- أحمد يوسف: تاريخ سورية القديم. دمشق ١٩٧٧ / ط٢.
- ٣- بهنسي- عفيف: وثائق إبلا. دمشق ١٩٨٤م.
- ٤- القيم- علي: همس الحروف. دمشق ١٩٩٦.
- ٥- سليمان- توفيق: أسطورة النظرية السامية. دمشق ١٩٨٢.
- ٦- ظاظا- حسن: الساميون ولغاتهم. دمشق ١٩٩٠.
- ٧- الشمس- ماجد: في أصل العرب. دمشق ٢٠٠٤م.
- ٨- الجندي- أنور: الشبهات والأخطاء. القاهرة ١٩٧١م.
- ٩- سواح- فراس: مغامرة العقل الأولى. بيروت ١٩٨٠م.
- ١٠- القيم- علي: مجالس الكتب، دمشق ١٩٩٢م.
- ١١- مجلة المعرفة السورية. العدد ٢٤٠ / ٢٥٠.
- ١٢- مجلة (المجلة) المصرية. نوفمبر ١٩٦٠م.
- ١٣- جريدة البعث- عدد ٨٩١٥ تاريخ ١٧/٨/١٩٩٢م.
- ١٤- مجلة العربي- عدد ٨٥ عام ١٩٦٥- والعدد ٩١ تاريخ ٦/٦/١٩٦٩.
- ١٥- مجلة الثقافة العربية- العدد ٧ حزيران ١٩٧٦م.
- ١٦- مجلة العلوم- العدد ٨/١٩٦١.
- ١٧- ولفنسون- إسرائيل: تاريخ اللغات السامية. بيروت ١٩٨٠م.
- ١٨- مجلة الموقف الأدبي- ٦/١٩٩٣م.
- ١٩- مجلة الحوادث اللبنانية- عدد ١١٢٦ تاريخ ٦/٢/١٩٧٨م.
- وغيرها من المراجع والحواليات والصحف.